

الإباضية موكب التاريخ

الحلقة الثانية

تأليف علي يحيى ميمر

بدأ اهتمامي بالإباضية، منذ ثيف وعشرين سنة، حيث قرأت في «الجلية الإسلامية» التي تصدر في لندن بالإنجليزية، «إسلاميك وفيو» هذا العنوان «مملكة فارسية بشمال إفريقيا».

فاستهوانى هذا العنوان، وأكبت على قراءة المقال، الذي كان حول «مملكة الرستميين بتاهرت»، وتبصع مراحلها التي قطعها في التاريخ، ثم ما حل بها عند الغزو العبيدي، من تشتيت وتشتيد، ثم ذكر الأماكن التي استقرت بها هذه الأمة وأسسها ما كان بالجزائر وليبيا، وما تعرض له هؤلاء اللاجئين عند الحرب العظمى وما تلاها من محن الاستعمار الإيطالي والفرنسي.

حقيقة كان البحث شيقاً مستمعا جامعاً، وقد كان منطلقاً لي في بحثي حول هؤلاء الرستميين، فأتت لي دراسة وإبسة، كما اعتقدت، ونشرتها في «صحيفة المعهد المصري» بمطريد سنة 1957 (العدد 2 - 3) بعنوان «دولة الرستميين أصحاب قاهرت».

وهكذا بقيت الهمة متعلقة بالإباضية من حيث اتصال هذه الدولة بهم، وكان أهم مرجع لي في شأنهم، كتاب الأزهار الرياضية لعبد الله الباروني، وهو بحق عمدة مؤلف الكتاب في هذا الموضوع، اعتمد عليه صاحب المقال السالف واعتمد عليه عثمان الكمال عندما تعرض في كتابه «موجز التاريخ العام للجزائر» لدولة الرستميين، واعتمد عليه مؤلفنا الذي نحن بصدد، ولا شك أن اعتمادنا عليه في الحلقة الأولى والثانية كما اقوى منه في هذه الحلقة، وإن لم أكن مع الأسف قد اطلعت عليهما حتى الآن.

والواقع إن هذه الحلقة أجمع ما كتب في تاريخ إباضية تونس وجزيرتهم «جربة» الخالدة، فلقد تناولهم منذ نشأتهم إلى الآن وتعرض للأحداث التي تعرضوا لها، والفتن التي خاضوها، والحركة العلمية التي قاموا على رعايتها،

التي هي ذلك، مما صوره لنا في فصوله الممتعة، وفي تراجم رجال الإباضية، الذين لا تقتصر معرفتهم على أن تمدنا بمعلومات قيمة عن إباضية تونس وحدهم.

والكتاب يتناول موضوعه بحرارة وحساسية، لم يقصد صاحبه أن يعرض عليك التاريخ ويشرحه، كما يشرح الطبيب الحث في برود وعدم انفعال، وإن كان المؤرخ، كما يقال، يجب أن يتحرى من عواطفه، بل يعرض عليك التاريخ وأنت تشعر أنه جزء منه وأنه يمتك ويذكرك به، ويستجلي لك العبر من أحداثه وأحزانه، لا يقتر في هذا ولا يثني من أول صفحة التي أن يصل إلى آخرها من الكتاب وهي التي سطر عليها «كلمة الختام» فكانت الصفحة 430.

وهذا لا يعاب به المؤلف، ما دام عرضه قد أضح به، وهو ليس التاريخ المجرد، مما جعله ينطق في حرية فيكرر في بعض الأحيان، ويقدم ويؤخر في التراجم، يبدون ما يلتزم نظاما، لا زميا ولا هجاليا، ولا غير ذلك من الالتزامات.

فيه قصص، وفيه وعظ، ولكن فيه أيضا منهجية لبعض فصوله، التي من أهمها ما عقده لجزيرة «جربة» وما تعرضت له من صحن، وما كان من آثار تلك الصحن، في داخلها وخارجها.

لقد أطلعنا المؤلف على صفحات قائمة مظلمة، سطرها المعز بن باديس، تلك الصفحات التي كنا نحفلين عنها، ونحن المالكية نعم المالكية، الذين نظرو بمنظار اصلافيهم، الراضين عن المعز، الذي تبار على الفاطميين، وفنك برجال من الإباضيين، فأسمنت بأن المذهب له دخل في التقويم، وإن حاول صاحبه أن يتجرد منه، ويتخفف من مسوحه الثقال.

ولولا أن المؤلف بدأ لنا مطلقا في عرضه، لكنا نتهمة بالمذهبية أيضا، ونقول أنه ما نظر إلا من زاويتها، على أنه وإن كان بهذا الاخلاص، لا يخلو من تحيز، الخفيف لاباضية الجزيرة، فيجعل البطولة لهم في المواقف التي لبثوا فيها، حتى ولو كان من ورائهم من يؤيدهم ويشد أزورهم، ويبرأهم من كل ما الصق بهم أو يعتذر عنهم، حتى ولو كان أصحاب المعاجم يجمعون على مؤاخذتهم كالبركي ومن أتى بعده منهم.

وأنا على معرفتي المحدودة بهم، أحس بشيء من التحيز وشيء من التحامل على المعز، والأبام كقيلة بأن توافق أو تخالف فيما أحسست به، احساسا مجردا أو قريبا من المجرد.

هذا وإن ملاحظة المؤلف على الباروني، فيما كتبه عن العجالة الإسبانية
 وأسباب اندحارها، ملاحظة صحيحة ولا مجال فيها للشك أو النفاش، فالباروني،
 على إخلاصه فيما كتب، عن الإباضية بالخصوص، أخذ بالمراجع الإسبانية
 المعتمدة على التقارير الكاذبة في تصوير ذلك الاندحار المخزي للإسبان،
 والمشترف لأولئك الجريسين الافذاذ في بطولتهم واستماتتهم واستشهادهم،
 وإن كانت لنا من ملاحظة على الكتاب، فذلك ما يتصل بالمطبعة غالباً
 ولا يتصل بالمؤلف كذلك، يتصل بالمطبعة العربية على العموم، لما يقع منها
 من تصحيف، وإن كان في هذا الكتاب لا يتعدى حدود الأنامل، ومن هذا
 القبيل هذا البيت الزهيري، الذي يجب أن يكتب كما يلي :

ومن لا يقد عن حوضه بسلاحه يهشم ومن لا يظلم الناس يظلم
 (ص 223)

أما ما عدا هذا، فتحو، ولا زالت، الواردة في الصفحة 2، وصوبها وما زالت،
 لأن، لا تدخل على الماضي إلا في أحوال ليس هذا منها، وهذا الخطأ في
 فعل «زأله» بالذات، عم المشارق والمغارب، وهو لحن صراح سواء كان
 بالمشارق أم بالمغارب.

وتحو «النضوج» الواردة في الصفحة 22، وهي من الأخطاء الشائعة شيوخ
 سابقا، ولا يوجد إلا «النضج» بفتح النون وضمة، وسكون الضاد، والقياس
 فتحها مفا، أما النضوج فلا يبيحه لا السماع ولا القياس، حيث إن هذا الوزن
 مقبس في فعل، بفتح العين، وهو لازم كما قال ابن مالك :

وفعل اللازم مثل فعدا له فعول باطراد كفعدا

وجلس ونهض وسكت وجحد وسجد وركع، وهذا بشروط لا لزوم
 لذكرها الآن، وقد ذكره ابن مالك فيما بعد هذا البيت.

وفي الصفحة 345، يأتي بيتين، وينسبهما «الشاعر القديم»، ويكرر ذكر
 هذا «الشاعر القديم» مرتين، مع أنه ليس قديماً، بل من البلاد التي
 تنتمي إليها الجزيرة، وهو ابن رشيق القيرواني، من رجال القرن الخامس،
 كما هو معروف، والبيتان أيضاً كما ذكرهما المؤلف الفاضل، بل هما كما يلي :

مما يزهدني في أرض الدلس تلقىب معتضد فيها ومعتد
 القاب مملكة في غير موضعها كالأهر يحكي النفاخا صولة الأسد

وأخيراً، نكرر شكرنا للمؤلف الفاضل، مؤملين له مزيداً من هذا العمل
 المجدي، الذي انتفعنا منه كثيراً.